قيم وثقافة المقاومة لدى قبيلة البرانس

الرموز،التمثلات والأسطورة

محمادي هرنان:دكتوراه في العلوم السياسية

تاريخ المجتمعات ككل، ليس وثيقة سطرت فيها كل الوقائع والأحداث كما حدثت، بل خليط مركز بين بعض الوقائع وبين الكثير من التمثلات والأساطير التي تشكلت عبر العصور .فكل مجموعة اجتماعية كيف ما كان حجمها تخضع لمنطق السلم كما الصراع بين الأنا والاخر.صراع يجد تداعياته من خلال إحاطة الأنا بالكثير من الرموز والأساطير والتمثلات المتمحورة حول الذات "المتميزة" لكن المستهدفة من طرف الآخر/العدو. فالأسطورة كما المذهب والايديولوجا رغم ما يقال عنها من تناقض فهي "متجانسة" ضمن نسق واحد وموحد وبذلك تتحول إلى قوة مادية فاعلة تحت تأثير الاعتقاد القوي بها.

في هذا الإطار يقول بول باسكون:"يعيش المغاربة،مثلهم في ذلك مثل السواد الأعظم من الشعوب،في ظل العديد من أنساق الاعتقاد:فهناك مجموعة متناثرة من الممارسات الطقوسية السابقة على التوحيد،ودين منزل-هو الإسلام- واحترام للعلم الحديث.وإن التنافر البين لهذه المجموعات العرفانية ...لا يطرح بالنسبة لكل ملاحظ خارجي،أو بالنسبة لكل أولئك الذين ينزوون داخل واحد من هذه الأنساق الجزئية الثلاثة أية مشاكل على مستعمليه.وقد يندهش المغاربة كثيرا-في معظمهم طبعا- لو سمعوا أن من الممكن أن يوجد تنافر،بل تناقض أو منافاة،بين هذه العوالم المفهومية أو الايديولوجية المختلفة".(بول باسكون: الأساطير والمعتقدات بالمغرب...ص:83).

في دراسته حول النار والأثر اهتم الباحث رشيد الحاحي بالرمزي والمتخيل لدى كل جماعة أو مجتمع حيث أشار إلى أن "...تحقيق مفهوم الإنسانية الكونية لا يمكن أن يتأسس فقط على الاكتشاف العلمي،بل على تعليم ودراسة الرمزية وعلم الأساطير ...وإتاحة الثقافات فرص التجاوب والتبادل والحوار عبر اكتشاف وتصريف، بل والاعتراف أيضا، بنبوغ وتعدد وفعالية متخيلها الرمزي.كما أن الفعالية الثقافية للإنسان في مجتمع ما يتطلب الإنصات لماضيه،وذلك بالبحث في اللغة الرمزية والأسطورة التي تتجلى عبر الوجود الاجتماعي والممارسات الدينية والثقافية والأدبية،والتمثلات والصور التي تميز متخيله الرمزي".(رشيد الحاحي:النار...ص:24).

ويشير كذلك إلى أهمية دراسة وتحليل هذه الرموز قائلا:"يكتسي تحليل الرمزية وتمظهراتها التمثيلية والتعبيرية والثقافية أهميته الأساسية في فهم الممارسات الإنسانية،من خلال إمكانية نزع الطابع الأسطوري عنه démythologisation وعن بعض الأفكار والمقولات والتمثلات التي راكمت معاني وتداولات تصل حد المعتقد،أو تحظى بصفة الثابت والمقدس".(نفس المصدر...ص:20)

هكذا نجد لدى قبيلة البرانس كما غيرها من القبائل معتقدات من الصعب إقناعهم بغيرها لأنها ومنذ قرون تأطر مخيالهم وذهنيتهم وقيمهم الفردية والجماعية بشكل صارم. في هذا الإطار نجد ثلاث مجالات في تاريخ البرانس قد تأسطرت بشكل ملفت للنظر فغيبت العديد من الوقائع الحقيقية لكنها في نفس الوقت أصبحت فاعلة ضمن النسق الإيجابي لقيم وثقافة المقاومة المحلية.هذه المجالات هي :إسم القبيلة المتبوع بكلمة "حر والأحرار" ، لامة/موسم البرية ثم شخصية الشيخ أحمد زروق .

خريطة عبد الرحمان المودن: البوادي...ص:29

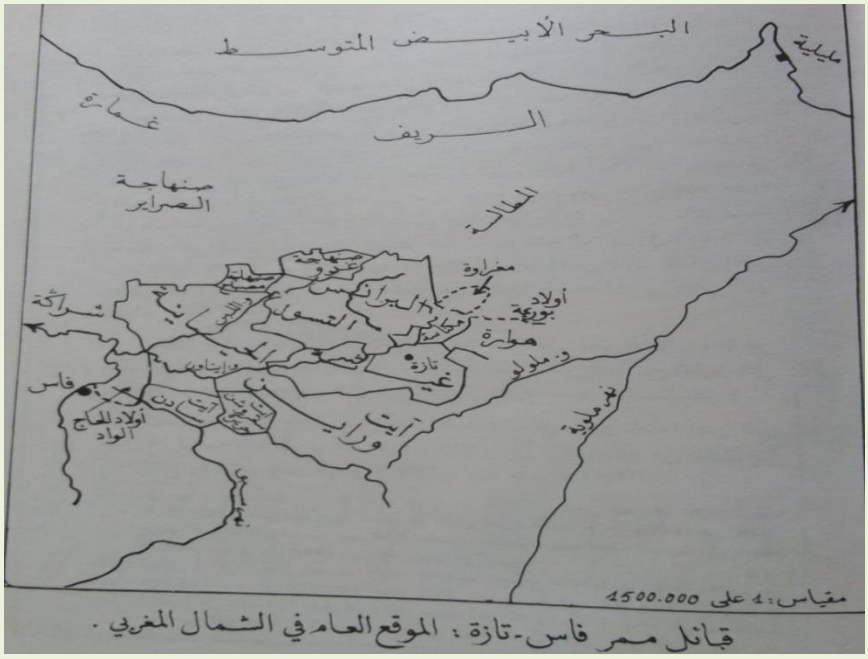

1- البرانس الأحرار/البرنوسي الحر

عندما يتم نطق اسم "البرانس" نجده غالبا متبوعا بكلمتي "الأحرار وحر" أي البرانس الأحرار والبرنوسي الحر كما نجد نفس الكلمة عندما يتم ذكر إسم فخدة بني بوعلا أي " الربع الحر " المنتمي إلى قبيلة البرانس وهذا ما يتداول حاليا كذلك حتى بين الناس العاديين وفي وسائط التواصل الاجتماعي. فيما يخص كلمتي "الأحرار والحر" يجب العودة إلى تاريخ القبيلة القديم لفهم سر اللقب/النعت.

يعود أصل قبيلة البرانس حسب النسابة العرب والمؤرخين إلى الجد الأول "بُرْنُس" أحد أبناء مازيغ. فرغم تشكل الأحفاد ضمن قبائل كبرى كثيرة واتخاذ أسماء جديدة مثل مصمودة نسبة الى الجد مصمود وصنهاجة نسبة إلى الجد صنهاج،غمارة نسبة إلى الجد غمار ...فإن قبيلة البرانس المتواجدة حاليا شمال تازة هي الكونفدرالية الكبرى الوحيدة بشمال إفريقيا التي لا زالت محافظة على الاسم الأصلي للجد الأول أي "برنس" هذا دون نسيان وجود فرقة/فخدة البرانس بإقليم أكادير وأخرى بمنطقة زرهون بالقرب من وليلي ومدينة مكناس ...

هذا المعطى التاريخي أي الحفاظ على التسمية ،توقف عنده الدكتور عبد الرحمان المودن قائلا: " بيد أن استمرار نفس التسميات ، بالرغم من الاختلاط النّسبي قد يدل بالنسبة للمجموعة المعينة ، على درجة من الالتحام ،تستوعب الوافدين الجدد ، الذين يضعون من الانخراط تحت التسمية الواحدة،علامة على دفاعهم عن رصيد تاريخي مشترك . فهل من الغريب أن تتواجد القبائل التي حافظت على تسمياتها منذ الأدارسة على الأقل، في مناطق المرتفعات حيث

من الواضح انه يسهل الالتجاء والتحصن؟ تلك حالة كل من غياثة، تسول والبرانس".عبد الرحمان المودن:(البوادي المغربية...ص:141)،ثم يضيف في مكان آخر"تمة كتلة قديمة تتمثل في ساكنة المرتفعات الشرقية ، غياتة ، تسول ، البرانس مكناسة وهي المجموعات التي لم تبرح مكانها والتي هي العمود الفقري بالمنطقة ".(نفس المرجع.ص:145)

نفس المعطيات تقريبا أشار إليها الحسن الوزان الملقب بليون الإفريقي حيث يقدم صورة مركزة عن قبيلة البرانس خلال العهد المريني وتتمثل في:

- الطابع الجبلي لمنطقة البرانس.
- الجرأة والشجاعة والطابع الحاد والحساسية القوية اتجاه أي اعتداء على شرف القبيلة.
- الموقف المعارض للمخزن المتمثل في عدم تأدية الضرائب .(الحسن بن محمد الوزان:وصف افريقيا.ص:357)

إن تمسك البرانس باسمها الأصلي بالإضافة إلى تجربتها السياسية التاريخية في المقاومة ضد الاستعباد من أجل الحفاظ على استقلالها وهويتها وأرضها ليس حكرا عليها فقط بل هو تراث مشترك مع العديد من القبائل الأمازيغية الأخرى وهذا ما أشار إليه ميشو بلير عندما قال بأن التنظيم الاجتماعي المغربي يتميز بشعور قوي وإرادة كبيرة في الاستقلال وارتباط عميق بالعادات والأرض...ضدا على أي تدخل خارجي وأي سيطرة مادية أو أي محاولة لاستعباده.(M.Bellaire :L'organisme …R.M.M-N :9-1909. P :1).

كما أن قبيلة غياتة المستقرة بشمال جبال الأطلس المتوسط والتي توجد مدينة تازة على ترابها،تُرْجع أصل اسمها إلى علاقتها بالدعوة والدولة الإدريسية حيث كانت من أوائل القبائل التي بايعت إدريس الأول وساندته.ذاكرة ساكنة غياتة تحتفظ برواية مفادها أن إدريس الأول قال لأجدادهم "تغيتو ولا تغاتوا" أي أنهم يُقْدِمون على إغاثة الآخرين ولا يحتاجون لأي إغاثة من الغير وذلك بفضل شجاعتهم وكبريائهم وأنفتهم.فالساكنة لها اعتقاد راسخ وقوي بأن "غياتة"تعني كذلك إغاثة الإسلام كما تعتبر نفسها مزرعة للسلاطين.(L.Voinot :Taza…p :64).

لهذا الاعتقاد وإن تأسطر مع مرور السنين دلالات قوية في نمط عيش القبيلة وعلاقتها بالمجال السياسي المغربي. فغياتة المتحكمة في مدينة تازة وممرها الاستراتيجي ساهمت بشكل كبير في صعود الدول المغربية وتحولها إلى أمبراطوريات كما ساهمت كذلك في سقوطها. تاريخ غياتة الحديث كان غنيا جدا من حيث تفعيل وتوظيف إمكانياتها البشرية وموقعها الاستراتيجي ومعتقدها وذهنيتها في تهديد السلطة المركزية عبر تبنيها وبيعتها بمدينة تازة لزعامات ثورية و حركات مهدوية رفعت شعار العدل والجهاد من أجل إسقاط السلطة بالعاصمة فاس مثل بوعزة الهبري سنة 1874،الجيلالي الزرهوني سنة 1902،عبد الكبير العلوي سنة 1910 قبل الانخراط التام في مقاومة الاستعمار منذ 1912.

تشكل التجربة التاريخية والسياسية لقبيلة البرانس مادة أساسية في فهم ثقافة وقيم القبيلة والكثير من المصطلحات المتداولة بالمنطقة.

خلال مرحلة مقاومة القبيلة للجيش الفرنسي الزاحف على المنطقة أنتجت المعارك الشرسة كلمة "الغدرة" التي

وحسب السياق الذي عاشته البرانس تعني الثورة وليس الخيانة.فالصلح والهدنة والاتفاقيات المبرمة بين الظالم والمظلوم/القوي والضعيف ،المنتصر والمنهزم يجب نقضهم والتراجع عنهم طالما هناك ظلم واستعباد يمس كرامة الإنسان/البرنوسي "الحر".إن كلمة "الحر" لا تتناقض مع كلمة "الغدار" بل تتكاملان ضمن سياق الحفاظ على الكرامة الإنسانية. فمن سنة 1912 إلى 1926 حضرت البرانس بقوة في كل معارك المقاومة وذلك وفاء لتاريخها وثقافتها ولقبها : البرانس الأحرار،البرنوسي الحر ،عزة النفس/النفس الحارة...

فكلما انهزمت البرانس أو جزء منها في معركة ما ضد الجيش الفرنسي دفاعا عن ترابها، كلما عمل قادة الجيش الفرنسي على محاولة استرجاع وإدماج القادة المحليين للمقاومة والأعيان قصد توظيفهم في إخضاع القبيلة بأقل التكاليف والخسائر .فمقابل ضمان حياة وممتلكات هؤلاء الزعماء كان عليهم الانتقال من منظومة المقاومة إلى منظومة الخدام الذين عليهم القيام بوظائف التهدئة والضبط الاجتماعي للقبيلة والحراسة اليـقِظة والفعالة للتواجد العسكري الفرنسي.

خلال شهري يوليوز وغشت 1915 وبتدخل من السيد "الكمار" شيخ قبيلة أولاد بكار المجاورة والحاج محمد بن علي قاضي تازة ومحمد الوجاني قائد غياتة، استسلم بعض زعماء المقاومة مثل علي الجراوي،بن بوكعيبات ،علي امطيطو الجراوي ،والكثير من الأعيان بالطايفة وبني فقوص وورىة بينما بقيت بعض فرق بني بوعلا تقاوم كالكراكرة والقطا...

بعد هذا الاستسلام والسيطرة على باب المروج الذي أصبح مركزا عسكريا قام الجنرال ليوطي يوم 20 ماي 1916 بزيارته ليلتقي بأعيان البرانس الخاضعين ويعمل على التهدئة وقطع العلاقة بينهم وبين الزعيم محمد الشنكيطي المتواجد في الريف، حيث يعمل على توفير الرجال من القبائل والسلاح من ألمانيا واسبانيا لحليفه الأمير عبد المالك منذ بداية 1916.

استطاع الأمير عبد المالك منذ منتصف سنة 1915 وهو بالبرانس جمع تحالف أولي مشكل من البرانس وغياتة،وتمكن كذلك من كسب ثقة شخصيات برنوسية وازنة مثل الكوراري ،حمو الفزاري ، ابراهيم الوربي ،محمد الشواي ،قويقة محمد بوعياد ،مسعود حروش،علي المراحي الجراوي ...هذا عدا عن التحالف والتواصل العملي مع الألمان المدعمين لحركته الجهادية بالسلاح والمال والأطر عن طريق بارتلز BARTELS.

بموازاة استخدام القوة العسكرية لجأت فرنسا كعادتها إلى نهج سياسة استمالة الزعماء والأعيان المحليين وتوظيفهم. لقد استطاع شارلي CHARLET استرجاع السيد السبيع قائد بني بوعلا وبوكعيبات شيخ أولاد حدو،القائد محمد الشواي من أعيان فرقة بني فتح الموالين للشنكيطي وعبد المالك ... وإلقاء القبض على القائد علي المراحي الجراوي أحد رجالات عبد المالك خلال شهر يونيو 1916 .لكن في المقابل استمرت المقاومة ببني بوعلا وورىة، وفي فترة وجيزة استطاع عبد المالك منذ أواسط 1916 فك التحالف بين فرنسا وبين محمد الشواي والسبيع،محمد حروش ومحمد الخلادي.

بعد حملة شاريي CHARRIER - شهر أبريل 1917- بأسبوعين انتقل عبد المالك إلى جبل بوهارون بالقرب من منطقة كهف الغار، حيث استمال لحركته أعيان البرانس ومرنيسة وصنهاجة واجتمع معهم في الحبايلة ببني فتح حيث تم تشكيل 3 فرق عسكرية:

- مجموعة الشواي ببني فتح والتي تضم 100 راجل وبعض الفرسان.

- مجموعة اليزيد البقالي التي تضم 600 محارب بالكوزات والتي جاءت من مرج رومي بتاينات.

- مجموعة سي التهامي التي عملت على تطويق الفرنسيين ببني بوعلا يوم 15 ماي 1917،فكانت الحصيلة 8 قتلى،جريحين ورشاشتين كغنيمة ثم هاجمت احد امسيلة لشل حركة واتصال الفرنسيين.

بعد فشل ثورة الجيلالي الزرهوني الملقب ببوحمارة سنة 1909 ربط محمد الخلادي علاقات خاصة مع الفرنسيين سنة 1913، فتم تعيينه شيخا على فرقة بوهليل بقبيلة الطايفة مقابل محاولاته إقناع البرانس بعدم مقاومة فرنسا بتازة شهر ماي 1914، لكن الخلادي سيدعم لاحقا رفقة القائدين العسكريين الشواي والسبيبع حركة المقاومة بقيادة محمد الشنكيطي بالبرانس سنة 1916/1915. أمام عدم توازن القوى العسكرية والهزيمة،انسحب الخلادي إلى قبيلة أولاد بكار المجاورة قبل أن تسترجعه فرنسا من جديد في إطار سياسة توظيف الأعيان والزعماء المحليين لإخضاع القبائل والتحكم فيها بأقل التكاليف والموارد البشرية. بعد تعيينه قائدا على الطايفة ،عمل الخلادي على تجميد عمل المقاومة التي يقودها الأمير عبد المالك ما بين 1917 و 1918 ثم عين قائدا على قبيلة بني فقوص كذلك بعد أن غدر/ثار كلا من القائد الشواي والقائد حروش ولاحقا على كل قبيلة البرانس سنة 1921.

ولكي يضمن ولاءه وهو الذي يعرف تقلباته السياسية ، قلده ليوطي LYAUTEY قلادة الشرف لكن هذا لم يمنع الخلادي من ربط الاتصال بمحمد بن عبد الكريم الخطابي أثناء اكتساح هذا الأخير لمجال منطقة ورغة بتاونات سنة 1924.

شكل هذا المستجد ، مقدمة لبداية القطيعة النهائية مع فرنسا حيث ساهم في تنظيم جيش الخطابي بجرفاطة وانتهى بفك الارتباط نهائيا مع المؤسسة العسكرية الفرنسية نهاية شهر يونيو 1925 والالتحاق بالمقاومة الريفية البرنوسية ليلة 26 يونيو 1925.

إن محاولات الجيش الفرنسي المتمثلة في هزم واسترجاع وتوظيف الأعيان وقادة المقاومة المحلية بالبرانس سواء كانوا مستقلين عنها أو موالين لها مثل الشيوخ والقياد لم تنجح بالكامل.فأغلبيتهم غدروا/ثاروا من جديد رغم الهزيمة والاستسلام ورغم جاذبية ومنافع المناصب والمواقع الجديدة.إنها لازمة الغدرة/الثورة التي تجد لها مرجعية فكرية وذهنية جد راسخة في عقل ووجدان البرنوسي الحر/البرانس الأحرار.

2- لامة البرية : موسم/مرجعية ثقافة المقاومة

لقد توقف بعض الباحثين في مجال علم الاجتماع والأنثربولوجيا عند ظاهرة هجرة مجموعات اجتماعية متفاوتة العدد والحجم لسبب من الأسباب كالحروب أو المجاعات نحو مجال اجتماعي قبلي آخر أرحب وأغنى.هذا الانتقال غالبا ما يكون متبوعا بالاندماج مع ما ينتج عنه من انخراط في نسيج وقيم بلد الاستقبال مقابل الحماية .درجة الاندماج والمساهمة تختلف من منطقة إلى أخرى .فقد يقتصر انخراط المجموعة الاجتماعية النازحة على بذل

المجهود الفلاحي والعسكري تحت مسؤولية العائلات أو الفرقة القبلية المستقْبِلة، وقد يحدث كما هو الحال بالنسبة لقبيلة أوربة بشمال تازة أن تندمج كخُمْس قائم بذاته ضمن كونفذرالية البرانس التي تتشكل من أربع قبائل أخرى وهي ،بني فقوص والطايفة وبني بوعلا وبني امحمد التي انضمت في وقت لاحق لبني بوعلا.

مكانة أوربة كخُمْس مهاجر من منطقة زرهون وليلي لم يمكنها من كل الحقوق الكاملة كخُمْس فقط بل تعزز موقعها بكل مؤهلات الإرث التاريخي السياسي الديني الخاص بها مما جعلها تغني تجربة وقيم وثقافة المقاومة لدى الكونفذرالية القبلية للبرانس.

قبيلة أوربة الحالية حي جزء من قبيلة أوربة التي استقرت بجبل زرهون التي هي كذلك جزء من قبيلة أوربة الأصل المستقرة بمنطقة الأوراس شرق الجزائر . خلال مراحل الغزو العربي لشمال إفريقيا استطاع أبا المهاجر قائد الجيش العربي إقناع كسيلة KSSEL زعيم قبيلة أوربة بالجزائر بأن الهدف من الحملة العسكرية هو نشر الإسلام وليس الغزو والغنائم والتدمير كما حصل مع الغزوات السابقة . لكن بنو أمية اللذين كانوا ينتظرون نتائج مادية من الغزوة لم يقبلوا بهذا الوضع فأرسلوا عقبة بن نافع ليقبض على أبا المهاجر وكسيلة ويعتقلهم بالقرب من منطقة تاهودا بالجزائر. ثار أتباع كسيلة وقتلوا عقبة انتقاما ل"غدرته" بالمعنى السلبي. سيطر كسيلة لسنوات عدة على تونس والجزائر لكن سيهزم من طرف الجيش العربي بقيادة زهير بن قيس البلوي .

بعد مقتل كسيلة سنة 686 م هاجر جزء من قبيلة أوربة إلى منطقة وليلي حيث أقاموا إمارة بزعامة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي قبل أن يستقبلوا إدريس الأول ويبايعوه إماما لنشر الإسلام سنة 789م.وفي نفس الوقت يحافظون على استقلالهم السياسي عن الشرق العربي . بعد مقتل إدريس سنة 793م على يد سليمان جرير الشماخ مبعوث العباسيين بايعت أوربة إدريس ابن كنزة لكن هذا الأخير عمل على جلب 500 مرتزق عربي من القيروان والأندلس كي يقوي سلطته عبر الجمع بين الإمامة والإمارة أي السلطتين الدينية والسياسية. وبمجرد أن تمكن من هدفه قام بالتصفية الجسدية "الغدرة" لأخواله زعماء أوربة واستقر بفاس لحماية سلطته الجديدة من أي خطر محتمل.
كسيلة ورغم " لمان/ الأمن والحماية " الذي وفرهما له أبا المهاجر "غدر" به عقبة، أوربة ورغم "لمان" الذي وفرته لجرير الشماخ "غدر" واغتال إدريس الأول.أوربة سهرت على تربية إدريس الثاني ووفرت له " لمان" ثم بايعته مكان أبيه إماما ف"غدر" بها ...
قبيلة أوربة التي ومنذ " الغدرة " الأخيرة، نزح جزء منها،عبارة عن فروع من فخدات/فرق القبيلة إلى منطقة الكوزات شمال تازة، فبقيت وفية لتقاليدها العريقة واستمرت ضمن بيئة البرانس الأحرار في توفير " لَمانْ / الأمن والضيافة والعلم والدعوة " لكل الزوار من القبائل المجاورة خلال "لامّة" موسم البرية.

لقد استقرت أوربة في الجزء الشمالي من قبيلة البرانس حيث تطغى على هذا الموقع الجغرافي الجبال والغابات والأحراش والوديان.فاستغلت التحصينات الطبيعية كي تحافظ على إرثها وذاكرتها الجماعية من أي عدوان خارجي خاصة ممثلي السلطة الرسمية المتواجدة بتازة.

منذ ذلك العهد والبرانس، تحتفل سنويا بعد موسم الحصاد مباشرة بذكرى بيعة إدريس الأول في موقع يطلق عليه اسم " البرية " بقلب قبيلة أوربة الحالية حيث ومع توالي القرون أصبح الاعتقاد سائدا لدى جميع القبائل بأن بيعة إدريس الأول تمت بالبَرّية وسط الجبال بمنطقة الكوزات وليس بمنطقة زرهون.

شجرة الزيتون البري تتوسط بناية البرية حيث يقام بها الموسم/الامة

هناك طقوس وعادات تمارس بهذا الموسم يجب الانتباه إلى مدلولاتها وأبعادها:

البريــة: إسم يطلق على نوع من أشجار الزيتون البري، أغصانه وجدعه صلب بالمقارنة مع الأنواع الأخرى لكن حباته لا تعصر ولا تنتج زيتا. يحتمي بها الإنسان والحيوان على السواء من حرارة الشمس، وتتحول في مناسبات عدة لعقد الاجتماعات والتداول في القضايا التي تهم الدوار أو الفرقة. ليس صدفة أن يكون جبل زرهون ووليلي مشهورين بأشجار الزيتون منذ العهد الروماني على أقل تقدير، وهي المنطقة التي لجأ إليها إدريس الأول فارا من سياسة ومذابح بني العباس ليحتمي بمظلة قبيلة أوربة.

إذا كانت شجرة الزيتون هاته تتمتع باحترام كبير وقدسية خاصة فإن تواجدها قرب الأضرحة وبالمقابر يحول وظيفتها إلى أن تصبح موضوع ممارسات وثنية تساعد على طرد النحس والخلاص من الأمراض عبر قيام الأشخاص والنساء بالخصوص بعملية " القطع فيها " أي ربط التمائم بأغصانها ورمي بعض الملابس بالقرب منها.

-الأمــن: كل الزوار القادمين من جميع الاتجاهات ورغم الخلافات التي قد تكون حدثت فيما بينهم إلى موسم البرية بقبيلة أوربة البرانس، متأكدين من سيادة الأمن والسلام أثناء عبورهم للقبائل المجاورة وإقامتهم بالموسم.إنها الوضعية التي عاشها إدريس الأول وخادميه أثناء انتقالهم إلى جبل زرهون واستقرارهم به في حماية إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير قبيلة أوربة لولا عدم الحذر والاستخفاف بمصاحبته لجرير الشماخ الذي اغتاله وفر نحو الشرق العربي.

-<u>الضيافة والاستقبال</u>: كل الزوار وهم بالآلاف الذين يحجون إلى الموسم- سبعة أيام- يستفيدون من حسن الاستقبال والأكل المجاني طوال إقامتهم. قد يقدم بعضهم هدية: ذبيحة، نقود أو أي منتوج آخر، لكن يبقى هذا بقرار ورغبة منه. هذا ما عاشه إدريس وخادماه بجبل زرهون حيث استضافته قبيلة أوربة، زوجته من كنزة، وفرت له الحماية والأمن وبايعته إماما من أجل الدعوة ونشر الاسلام.

-<u>الدعــوة:</u> لا يتوقف الحفظة عن ترتيل القرآن والدعاء لفائدة الزوار الذين بإمكانهم تقديم هدية نقدية رمزية تعود لصندوق وخزينة البرية. إنه الحفاظ على الاستمرارية في الدعوة ونشر الإسلام موضوع بيعة أوربة لإمامها إدريس الأول.عبر هذه الطقوس والممارسات ذات الدلالات الرمزية الكبيرة، تكرس قبيلة أوربة والبرانس ككل وقائع تاريخها السياسي الديني وارتباطها بالأصول.

تكريس وقائع التاريخ السياسي الديني للقبيلة تم بالموازاة مع عملية أسطرته بشكل كبير جدا مع مرور السنين.فساكنة البرانس وحتى بعض القبائل المجاورة لها اعتقاد راسخ ومطلق بأن إدريس الأول نزل بمنطقة الكوزات - وليس بزرهون- لدى زعيم قبيلة أوربة إسحاق الأوربي الذي استضافه،حماه،زوجه من ابنته كنزة ثم أشرف على بيعته إماما من أجل نشر الإسلام. قد يفسر هذا الاعتقاد المطلق بأنه حنين مغلف بما هو سياسي ديني للتجربة السياسية الدينية الأولى لقبيلة البرانس لكن الأهم في كل هذا هو أن هذه التمثلات والرموز شكلوا رافدا أساسيا من بين روافد ومرجعية المقاومة لدى البرانس ومحيطها القبلي.

إن هذا المعطى أي الإرث السياسي الديني والتجربة التاريخية لا يمكن إغفاله كعنصر مهم في تفسير تبني قبيلة البرانس، وحتى جيرانها التسول، غياثة ومكناسة لحركات مهدوية ومطالبين بالعرش وثوار على الاستعمار.ففي ظرف أربعة عقود فقط التفت هذه الكونفدراليات القبلية حول زعماء كبار بنوا إستراتيجيتهم على الربط الجدلي بين الجهاد ضد العدو الخارجي وبين غزو السلطة مادام السلطان الذي بويع على أساس تحقيق العدل بين الرعية وحماية الحدود عبر الجهاد قد عجز عن الوفاء بواجباته السياسية الدينية.

طوال أربعة عقود أي منذ بداية عهد الحسن الأول 1883، عاش شمال وشرق المغرب ثورة استثنائية أنتجت شخصيات وزعامات هدفها إسقاط السلطة من بينهم بوعزة الهبري، سعيد السغروشتي، الجيلالي الزرهوني، المولى عبد الكبير أخ السلطان عبد الحفيظ هذا بالإضافة إلى قادة المقاومة مثل الغازي والشنكيطي والحجامي وعبد المالك حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ومحمد بن عبد الكريم الخطابي. خلال كل هذه المحطات كانت كونفدرالية البرانس حاضرة بقوة ضمن تحالف قبلي كبير يمتد من الحدود الشرقية إلى شرق فاس العاصمة.

أهمية المكانة التاريخية السياسية الدينية للبرية كانت حاضرة لدى بعض هؤلاء الزعماء.فعبد المالك الجزائري الذي عاش كقائد عسكري تجربة ثورة الجيلالي الزرهوني على المخزن يعرف جيدا ليس تضاريس جغرافية البرانس فقط بل حتى مجال الذهنيات والمعتقدات السائد في البرانس وغيرها من القبائل المجاورة.لقد اعتمد في مواجهته للجيش الفرنسي على قيادات ميدانية محلية ينتمي الكثير منهم للكوزات/البرية،وهي قيادات أصلها قبيلة أوربة ولها مكانتها الاجتماعية والدينية والمعنوية الخاصة كما هو الحال بالنسبة للكوراري وابراهيم الوربي واليزيد البقالي الذي كان

قائدا عسكريا ل 600 مقاتل اتخذوا سوق السبت/البرية مركزا وموقعا خلفيا للقيام بهجماتهم خلال شهر ماي 1917.

3- الشيخ زروق:حضور الولي وغياب العالم/ الفقيه

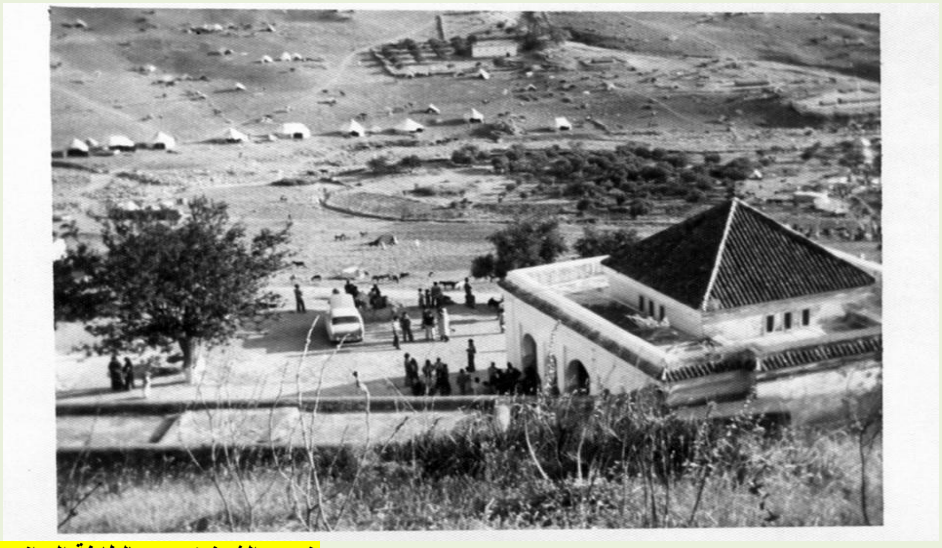

ضريح الشيخ زروق بالطايفة البرانس

يعتبر الشيخ زروق الوجه الآخر بعد البرية لعملية أسطرة التاريخ السياسي الديني بقبيلة البرانس وتوظيفه في الحياة العامة والخاصة بما في ذلك المقاومة. ساكنة البرانس وحتى غيرها المنتمية للقبائل المجاورة لا تعرف عن زروق الواقعي إلا القليل جدا، لكن ذهنيتها مشحونة بالعديد من الحكايات والروايات المؤسطرة إلى درجة لا تتقبل بسهولة ما يقدم إليها من معطيات جديدة تخص هذا الشيخ.فزروق الواقعي غائب تماما لكن زروق المؤسطر حاضر بقوة في قيم وثقافة وعادات البرانس التي اعتمدت عليه في إنتاج خطاب منسجم وصلب حول الهوية والذات الجماعية والفردية وما ينتج عن ذلك من مقاومات متعددة في مواجهة الآخر بكل تمظهراته:اجتماعية،دينية،فكرية،سياسية ...

كانت عامة ساكنة البرانس تجهل وإلى وقت قريب، أغلب الوقائع حول زروق من الولادة حتى الوفاة ولا تتداول فيما بينها إلا "وقائع" متمحورة حول شخصية زروق كولي صالح متعدد الكرامات.

موقع الضريح الاستراتيجي في أسفل الجبال بجانب وادي أهرار بمنطقة تليوان بقبيلة الطايفة البرنوسية يجعله محصنا من أي اختراق خارجي.فبالإضافة إلى الضريح نجد مسجدا ومقبرة ومدرسة لتعليم القرآن والعلوم الدينية وهذا ما يعتبر زاوية ضمن خريطة المقدس بالمغرب.مباشرة بعد "لامة البرية"، يقام سنويا بهذا المكان موسما "لامّة" مع نهاية موسم الحصاد، حيث يستقبل الزوار من مختلف قبائل تازة على مدار ثلاثة أيام .ظاهرة تلاوة القرآن والدعاء للزوار والصلاة بالمسجد كنشاط ديني لا تتناقض حسب المعتقدات المحلية مع تواجد فرق الفروسية"الخيالة" والمجموعات الغنائية والراقصة التي يلقي أعضائها شعرا مرتجلا في جميع الأغراض الشعرية بما فيها الغزل وتبجيل السيد/الولي.كما أن هذا لا يتناقض كذلك مع طقوس قد تحسب على السحر والشعوذة كعملية "القطع" أي رمي التمائم أو قطعة من قماش أو لباس بجانب شجرة الزيتون البري المجاورة للضريح أو ربط ذلك الشيء بأحد فروع الشجرة.ما يقوم به الكثير من الرجال والنساء من ممارسات كالتوسل إلى الولي الصالح قصد المساعدة على مواجهة مشكلة ما كالمرض أو تمكينهم من حاجة ما كالزواج هي طقوس عادية ضمن قيم وثقافة الساكنة ولا تشكل بالنسبة إليها أي تناقض مع الشرع.

تقف الباحثة السوسيولوجية فاطمة المرنيسي ميدانيا على ظاهرة زيارة الأضرحة بالمغرب فتقدم تفسيرا اجتماعيا وسياسيا ونفسيا لغلبة العنصر النسوي على الرجال ضمن فريق الزوار حيث تقول:"في الضريح،تتقمص المرأة شخصية مغايرة لشخصيتها الواقعية والثانوية في مجتمع بيروقراطي وبطريركي'أبوي' يتخذ الرجل فيه دائما المبادرة والقرار"، وتضيف في مكان آخر "تجتمع النساء حول قبر الولي المفترض،ويشعرن باتصال مباشر به،لأنه يمثل المصدر المقدس للقوة التي تعكس استطاعتهن ومقدرتهن في التغلب على المصاب".(فاطمة المرنيسي:المرأة ونظام الرموز...ص:59/58).

لا تخرج قبيلة البرانس بمعتقداتها وثقافتها وقيمها هذه عن القاعدة العامة لحياة مختلف الشعوب وهذا ما لاحظه الباحث السوسيولوجي بول باسكون قائلا:

"من بين –كل-البلدان الإسلامية ،يعبر المغرب البلد الذي يبجل أكبر عدد من الأولياء .فلا وجود فيه مطلقا لهضاب لا يُتَوَجُها مزارا وقليلة هي القرى أو المقابر التي لا يوجد بها ضريح يمجد ولِيّا أو أكثر من ولِي.وقد لا يكون الشعار القائل بأن "المغرب بلد المائة ألف ولِي" شعارا مغاليا".(بول باسكون: الأساطير... ص:96).

ازداد الشيخ أحمد زروق الواقعي سنة 846 هجرية/ 1442م من أبوين أصلهما قبيلة الطايفة البرنوسية لكن وفاتهما خلال أسبوع ولادته جعلت جدته الفقيهة أم البنين تتكفل به.تعلم حرفة الخرازة/السكافة كي يضمن بها قوت عيشه خصوصا وان أباه لم يترك له إرثا يستنفع به. عند بلوغه سن السادسة عشر دخل عالم التعليم على يد علماء عصره حيث لم يقتصر تكوينه على الفقه وما يرتبط بالقرآن والسيرة واللغة العربية بل شمل حتى التوحيد والتصوف.(أنظر:عبد الله كنون:موسوعة ذكريات...ص:6-7).

مسار الشيخ زروق من الناحية العلمية لم يتوقف عند المجال العلمي بفاس بل امتد نحو استكشاف آفاق العلم بدول شمال إفريقيا والشرق الأوسط خاصة مصر التي أخذ عن علمائها الكثير كما أشرف على تدريس الطلبة بجامعتها.

كانت مكانته العلمية جد عالية بين مختلف علماء تونس وليبيا ومصر.ففي طرابلس"أحيى بها معالم الطريق، وأوضح بيان التحقيق،وأشهر بها الطريقة الشاذلية ونشر أعلامها السنية".(أنظر:فارس أحمد العلاوي:رسالة في أصول...ص:16) ...

وعن علاقته بمصر يقول نفس المصدر"ولما سَمِعَت بقدومه العلماء والفضلاء من أهل مصر وفذوا عليه،وتمثلوا بين يديه وحضروا دروسه،وصار يُدَرس في الجامع الأزهر الشريف،وكان يحضر دروسه زهاء ستة آلاف نفس من مصر والقاهرة وأحوازها،وتولى إمامة المالكية وصار أستاذ رواقهم ونصبوا له كرسيا عالي الأركان بديع الإتقان صار يجلس عليه،ويملي الدروس ويفيد فانتفعت على يديه الأحرار والعبيد...وكانت له صولة ودولة عند أمراء المصريين وله عندهم القبول التام عند الخاص والعام".أنظر:نفس المرجع. ص: 17) .

مكانة الشيخ زروق كعالم،فقيه،متصوف ومجدد بين مختلف علماء الشرق وشمال إفريقيا تجسدت من خلال العديد من المؤلفات في الكثير من المجالات العلمية والدينية نذكر من بينها: 39 مؤلفا في التصوف،10 مؤلفات في

الفقه،6 مؤلفات في الحديث،3 مؤلفات في علم الحرف، مؤلفان في السيرة الذاتية والتراجم،مؤلفان في تفسير القرآن وسورة الفاتحة،مؤلفان في العقائد،مؤلفان في الطب وديوان شعري واحد،فضلا عن شروح وتعليقات مختلفة، ورسائل متعددة، بين مخطوطة ومطبوعة.

إن اجتهادات زروق في الفقه والتصوف وإن جلبت عليه الكثير من الانتقادات من طرف بعض علماء فاس فقد مكنته من أهم موقع علمي ديني بالمغرب حيث "أطلق عليه علماؤنا الأجلاء رحمهم الله 'محتسب العلماء والأولياء' وهي صفة جليلة ضخمة لم يظفر بها غيره من علماء الإسلام لا فيما قبله ولا فيما بعده.وإنما المحتسب القائم بالحسبة ذلك الوظيف الشرعي الممتاز الذي يعم اختصاصه ويشمل كل الوظائف الشرعية حتى الخلافة العظمى والقضاء" ! (أنظر:عبد الله كنون:موسوعة...ص:13).

عاش الشيخ زروق مرحلة تناسل الطرق والزوايا بشكل ملفت للنظر،فما كان عليه إلا مواجهة الكثير من الانحرافات من داخل الجسم الصوفي معتمدا على الفقه والعلوم الشرعية .فزروق المنتمي إلى الطريقة الشاذلية "...كان له...مقام كبير بين طوائف الصوفية وخاصة الشاذلية منهم. فقد أقامه الجميع مقام الحَكَم الذي ترضى حكومته وأقروا له بالإمامة وأثنوا عليه الثناء العاطر وتداولوا عهده وتلقوا كلامه بالقبول ورووا وظيفته،وهي كلها أذكار نبوية،كابر عن كابر،وهذا فضلا عن مشايخ العلماء وكبار الفقهاء الذين أخذوا عنه بالمشرق والمغرب".(أنظر:عبد الله كنون:موسوعة...ص:19).

تنامي المكانة العلمية والسياسية للشيخ زروق بشكل ملحوظ بين العلماء،القضاة،الطرق والزوايا وكذا السلطة السياسية حصل في ظرفية سياسية دينية دقيقة جدا تمثلت في ما يلي:

- نهاية المشروع الإمبراطوري بشمال إفريقيا واستقلال مناطقه وما نتج عن ذلك من صراعات وحروب :دولة بني عبد الواد بالجزائر، دولة بني حفص بتونس ،دولة بني الأحمر بغرناطة دولة بني مرين ثم بني الوطاس بالمغرب.

- بداية نهاية الدولة المرينية التي"آل أمرها إلى ضعف وانحلال ،حيث تدخل الوزراء والحجاب في شؤون الدولة فأصبحوا هم حكام البلد الفعليين،بينما كان السلطان مجرد شخص على رأس الحكم،خاصة عهد آخر سلاطين الدولة المرينية:عبد الحق المريني التي شهدت أيامه تحلل وسقوط تلك الدولة".(أنظر:ادريس عزوزي:الشيخ أحمد زروق...ص:21)

- احتداد الصراع المريني الوطاسي على السلطة الذي تمثل في قيام السلطان عبد الحق المريني بالتصفية الجسدية والسياسية للوزراء المنتمين لبني الوطاس شملت الوزير القوي يحيى ابن يحيى الوطاسي وخمسة من الحجاب-جمع حاجب- وتم تعويضهم بوزيرين يهوديين الديانة،فثارت ساكنة فاس التي وبعد قطع رأسه بايعت الشريف الجوطي الإدريسي الأصل بدعم من الطريقة الشاذلية سنة 1465م.

- بعد نجاته من مذبحة السلطان عبد الحق المريني، استطاع محمد الوطاسي السيطرة على أصيلا قبل العودة إلى فاس من جديد التي سيطر عليها وأعلن سلطانا بها سنة 1471م بدعم من الطريقة القادرية .

- أمام هذه الأزمة المركبة والمكثفة وأمام عجز السلطة على حماية الحدود حيث احتلت البرتغال مدن سبتة سنة 1415م،أنفا وأصيلا وطنجة والقصر الكبير سنة 1471م، تنامت قوة الطرق والزوايا التي ظهرت منذ القرن 12 لكنها تناسلت وتطورت خارج السلطة المركزية وأصبحت تلعب أدوارا مركزية في النسق السياسي الديني بالمغرب.فالزاوية الشاذلية التي ينتمي إليه الشيخ زروق بفاس أمرت بقطع رأس السلطان عبد الحق المريني كما دعمت عودة السلالة الإدريسية إلى الحكم عبر مرشحها الشريف الجوطي. وفي نفس الوقت قادت زاوية عبد السلام بن مشيش الشاذلية الأصل رفقة الزاوية الجيلالية العراقية الأصل المقاومة ضد الغزو البرتغالي.صراع السلطة بين الأدارسة والوطاسيين دفع بالطريقة القادرية كذلك إلى الدخول على الخط وإعلان محمد الشيخ الوطاسي سلطانا على فاس سنة 1471م وتوفير الدعم والغطاء الإيديولوجي للسلطة الجديدة.

- بموازاة الظهور المكثف للطرق والزوايا على عهد الشيخ أحمد زروق وتنامي دورهم السياسي الديني استفحلت، ظاهرة "الشعوذة والبدع.." من خلال الرواة والحلقات في الأماكن العام كالأسواق والطرقات ساهم فيها أشخاص عاديون وكذا بعض المتصوفة ومدعي النبوة مثل عمرو بن سليمان الذي بشر بنهاية أحكام الكتاب والسنة لصالح ما يقوله له قلبه.إنها مرحلة انهيار وتفكك نسق القيم والثقافة التي واجهها الشيخ زروق المُصْلِح في كتبه خاصة مؤلفه تحت عنوان: "عدة المريد" الذي رد فيه على المتصوفة المبتدعين على حد قول الدكتور عزوزي.(أنظر التفاصيل لدى :ادريس عزوزي:الشيخ أحمد زروق...ص:27-28).

في ظل هده الظروف المعقدة اضطر الشيخ زروق إلى الهجرة إلى منطقة مصراتة بليبيا ليستقر بها سنة 1481م وبها توفي سنة 1493/4.بمصراتة كما بقبيلة الطايفة توجد زاويتان للشيخ زروق حيث هناك اختلاف حول تاريخ تشييدهما، هل على عهد الشيخ زروق أم بعد وفاته.وهناك اختلاف كذلك حول الشخصية المدفونة بضريح زروق بالطايفة هل أب زروق أم أحد أبنائه علما بأن البرانس لها اعتقاد راسخ بأن قبر الضريح يعود للشيخ زروق، لكن ما يهم هو دور الجانب الأسطوري للشيخ زروق في تكوين ذهنية البرانس التي شكلت مرجعية أساسية في قيم وثقافة المقاومة.بداية تشكل هذه الأخيرة،انطلقت من مختلف الروايات التي غلفت شخصية الشيخ بهالة كبيرة حولته من عالم وفقيه ومتصوف إلى ولي صالح له ما يكفي من الكرامات في مواجهة الآخرين. لقد ساهمت شخصية الولي في تكوين الهوية والذات البرنوسية المستقلة عن الجميع:محيط قبلي،مخزن،شرفاء ومرابطين والاستعمار فيما بعد.

أولى الروايات التي تؤكد على الاستقلال الروحي للبرانس هي ما نسجته القبيلة حول مكانة الشيخ زروق في مواجهة الشرفاء والمرابطين التي تطرق إليها الباحث محمد الخدادي حيث يقول في فقرة مطولة:" تقول رواية محلية إن شخصا شريفا من سلالة الأدارسة، هو يعقوب بن عبد الواحد ابن محمد بن يوسف، وفد من منطقة ارشيدة، الواقعة بإقليم جرسيف حاليا، إلى الجزء الجنوبي الشرقي من قبيلة البرانس، وتحديدا إلى فرقة أولاد جرو، فنزل بخدمه وأبنائه وخيامه قرب جدول ماء في المكان المعروف حاليا باسم "الكَرْنة دَالرْحَى"، على الطريق الثلاثية الرابطة بين مدينة تازة ومركز باب المروج.

وتوضح الرواية أن "سيدي يعكَوب" (يُنطق القاف في "يعقوب" معقودا بلهجة هؤلاء اليعكَوبيين، كما تنطق الجيم عند المصريين، وذلك دلالة على أصولهم العربية، وربما من اليمن تحديدا، حيث يسود هذا النطق إلى اليوم) اطمأن إلى ذلك المكان، واعتبره مناسبا للإقامة فأمر خدمه بحط الرحال ونصب الخيام هناك، لكن، وبمجرد ما نصبوا الخيمة الرئيسية، وقبل تثبيت أوتادها في الأرض، هبت ريح عاتية فاقتلعتها وألقت بنسيج الخيمة بعيدا.حاول الخدم مرة ثانية وثالثة نصب الخيمة، وعند كل محاولة تكرر المشهد نفسه... استغرب "سيدي يعكَوب" الأمر، و فطن إلى أن هناك سرا وراء الريح القوية التي تقتلع خيمته، فطلب من أتباعه التوقف، وأرسل في طلب أشخاص من سكان المنطقة، وسألهم إن كان هناك وَلِيّ "يخدمونه"، فقالوا نعم، إنه سيدي أحمد زرّوق، ودلوه على مكان ضريحه، على بعد حوالي 10 كلم غرب ذلك المكان، عند نهاية جبل أزدم. حينها، أمر "الشريف" خدمه بجمع الأغراض، وقال إن للبلاد صاحبها، ولا يمكن أن يجتمع وَلِيَّانِ في مكان واحد، ثم عاد من حيث أتى.وتضيف الرواية أن بعض أبناء "سيدي يعكَوب" لم يعودوا مع والدهم إلى بلده في ارشيدة، وفضلوا البقاء هناك، ومنهم تناسل الشرفاء اليعقوبيون، الذين يشكلون الآن جزءا من النسيج السكاني في فرقتي أولاد جرو واترايبة، وهما نصف ربع بني فقوص، أحد أرباع كونفذرالية البرانس ، إلى جانب الأرباع الثلاثة الأخرى، الطايفة، وربة، وبني بوعلا.

لا شك أن هذه الرواية، ذات الطابع الأسطوري، تعكس تعلق البرانس بابن قبيلتهم، وافتخارهم بمقامه، ما دفعهم إلى جعله، هو الإنسان "العامي" والمتوفى، يهزم "شريفا" حيا من سلالة النبي، ويطرده من البلاد، بفضل مقامه الرفيع في درجات "البركة" المنسوبة إليه".(أنظر محمد الخدادي:أحمد زروق...ص:1-2).

هذا المعطى الاجتماعي الديني المبني على الشرف/الانتساب إلى آل البيت والمنتشر عبر خريطة المغرب منذ الأدارسة، سبق للشيخ زروق أن اتخذ منه موقفا موضوعيا وهو يتحدث عن نسبه وأصل لقبه"زروق" حيث قال "إنما جاءني من جهة الجد،كان أزرق العينين واكتسبه من أمه... وكانت شريفة لكنني لم أتحقق نسبها لموت أبي،وشرف المرء إنما هو سلامة دينه وحِلْيَتَه ومروءته،ولا شرف أكبر من تقوى الله ،إن أكرمكم عند الله أتقاكم...".(أنظر عبد الله كنون:موسوعة...ص:5).

نجد بقبيلة البرانس فروعا من الشرفاء مثل شرفاء وزان،أولاد مولاي عبد السلام بن مشيش،أولاد سيدي أحمد الحراق كما نجد فروعا من المرابطين مثل أولاد سيدي يعكَوب،أولاد سيدي أحمد الحاج وأولاد بن عزوز،أما الزوايا المنتشرة هنا وهناك فتتمثل في الزاوية التهامية والتيجانية والدرقاوية.(أنظر TRENGA: Les Branes P :314...318...).

لقد ورثت البرانس تصور الشيخ زروق حول المجال الاجتماعي الديني حيث ورغم استقبالها للعديد من الشرفاء والمرابطين وانتماء الكثير من ساكنتها للزوايا المنتشرة عبر ترابها ورغم إحاطتهم بما يجب من الاحترام والتقدير والتوقير فإنها تحتفظ لابنها الشيخ زروق الشخص "العامي" بسمو المكانة على جميع هؤلاء الفاعلين الدينيين الذين يحتلون مواقع ثانوية وأدنى مقارنة مع زروق الولي الذي يحتل رأس الهرم بشكل مطلق وبدون منازع.

مكانة الشيخ زروق هاته لم يكتسبها من موقعه كعالم،فقيه ومتصوف بل من مختلف الكرامات التي يتوفر عليها

والتي أهلته ليكون وليا صالحا.عملية أسطرة الشيخ زروق مست كل مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية واتخذت صيغا ومظاهر متعددة كما تطرق إليها الباحث محمد الخدادي منها :

- "الركيزة دالبرانس: يعتبر أهل قبيلة البرانس هذا الفقيه والقطب الصوفي "ركيزتهم" (الركيزة: دعامة خشبية من جذع شجرة، تثبت في الأرض عموديا، لحمل سقف "النشرة" في بهو البيت) أي الضامن لهم، وواهبهم العون والبركة، والمساعدة على قضاء مختلف الأغراض، المادية منها والمعنوية...

-البركات ،عَطَّايْ لَعْزَارَا: ظل البرانس دائما يحتفظون في اعتقادهم وفي سلوكهم بمكانة متميزة لأحمد زروق، وصلت إلى مستوى التقديس، ويعتقدون بعمق في كراماته وولايته، كوسيط بينهم وبين الله في تحقيق أمانيهم، وقضاء أغراضهم، الدنيوية منها والأخروية... هكذا دأب الرجال المتزوجون حديثا على اصطحاب زوجاتهم، غداة العرس، إلى الضريح، وتقديم ذبيحة إلى مقدم الزاوية، بأمل أن يأتي المولود الأول ذكرا، ومن هنا أخذ أحمد زروق لدى البرانس صفة "عطاي لعزارا"، أي واهب الأبناء الذكور... إلا أن بركات أحمد زروق تشمل جل مناحي الحياة، من شفاء مختلف الأمراض ودوام الصحة، وحفظ المواشي من الأمراض، والمحاصيل الفلاحة من مختلف الأضرار، وتنمية التجارة، إلى المساعدة على حفظ القرآن.. وتعلم الرقص، وتدبير العلاقات الغرامية.

- نزاعات الحياة اليومية: ظل الناس يحتكمون إلى أداء اليمين في ضريح أحمد زروق، من أجل دفع تهمة أو إثبات البراءة، بأن يدخل المدعى عليه إلى الضريح، ويجلس أمام قبر صاحبه، ويقول "حَقْ هَاذْ الوَلِي وْمَا يَسْوَى عَنْدْ الله، مَا فعلت كذا"، أو "أرجعت لفلان دينه"،غير أن هذا الخيار يعتبر أقسى امتحان يمكن أن يتعرض له الشخص، وحتى لو كان صاحب حق، فإنه عادة ما يمتنع عن ذلك، مفضلا التنازل عن حقه، خوفا من أن "يَنْفُذَ فِيهْ" صاحب "المقام"أي يصيبه مكروه .كما أن طالب الحق قد يكتفي بمجرد قبول خصمه مبدأ القسم، ويتنازل له عن أداء الفعل، إشفاقا عليه مما قد يصيبه من مكروه إذا أقسم كاذبا، وكذا تفاديا للوم من طرف "اجْماعَة"، لأنه أخضع فردا منها لهذا الموقف الصعب".(بتصرف أنظر:محمد الخدادي:أحمد زروق...ص:2-5).

نفس الوضعية الحرجة الخاصة بالقَسَم باسم سيدي أحمد أوموسى بالجنوب المغربي،تطرق إليها بول باسكون قائلا:"...أن تُقْسِم باسم سيدي احمد أوموسى معناه أنك تقوم بعمل مرعب...هكذا نرى كيف أن توسّط الأولياء يمكِن من تشكل الأفكار الأخلاقية وإدامتها وغالبا ما يساءل الولي من أجل تدعيم ضوابط الحياة الاجتماعية".(بول باسكون:الأساطير...ص:97).

مكانة الضريح المحورية في المجتمع المغربي وما هو مشترك بين العديد من الأضرحة بما فيهم ضريح الشيخ زروق من حيث ولادة الذكور واليمين وكرامات أخرى، تطرق إليهما الباحث عبد الغني منديب قائلا: " يتمحور الضريح كمؤسسة ومزارا دينيين حول قبر الولي الدفين،إذ تعتبر الأضرحة في الغالب الأعم قبورا للأولياء أو الصلحاء أو السادة أو الشرفاء،وكلها أسماء متعددة لمعنى واحد،هم شخوص(رجال ونساء) من البشر-وأحيانا من الجن – يعتقد أنهم يمتلكون القدرة على قهر الأرواح الشريرة وجلب الخير لمن يرضاهم وإلحاق الشر بمن يسخطهم من الناس،وذلك بفضل ما لديهم من بركات.هذه البركات التي اكتسبوها بفعل تقربهم من الحضرة الإلهية

خلال زمن اسمه'بكري'،زمن ليس له بالضرورة سياق تاريخي محدد،أصبحت لهم فيه القدرة على التوسط بين الإله والبشر لقضاء حاجات السائلين".(عبد الغني منديب:الأضرحة بالمجتمع القروي....ص:173).

ويضيف في مكان آخر: "تعرف معظم الأضرحة بشفائها لأمراض معينة وهي إما أمراض عضوية كالعقم أو الإجهاض المتكرر (أو عدم إنجاب الذكور) أو غيرها،أو أمراض نفسية أو عقلية ينظر إليها باعتبارها ناتجة عن مس من الجن أو عن عمل سحري كأمراض الفصام والصراع وما شابههما...إذ يمكن للمرأة التي تعاني مثلا من اضطراب للخصوبة زيارة ضريح'مولاي بوشعيب الرداد' بمنطقة دكالة الذي يعرف ب'حَلاّل حْزام العاقرات' دلالة على قدرته على علاج العقم عند النساء،كما يمكنها اللجوء إلى ضريح'مولاي إبراهيم' الذي يوجد بضواحي مدينة مراكش والذي توصف زيارته للداء نفسه،فهو من منظور الناس 'عَطّاي العْزارة بْلا حْزارة'."(نفس المرجع.ص:142).

ويضيف أيضا:"وقد أمكننا أثناء تحرياتنا الميدانية ملاحظة كيف أن عددا من القرويين يستسهلون أداء اليمين لدفع شبهة ما عنهم،لكنهم يتهيبون أحيانا أداء هذا اليمين نفسه ويرفضون داخل ضريح الولي المذكور-مولاي عبد الله أمغار بمنطقة الجديدة".(نفس المرجع.ص:146).

من جهته تطرق ترينكا إلى بعض هذه الكرامات حيث يلجأ البرنوسي إلى استعطاف"السيد"من أجل وفرة الإنتاج الزراعي مقابل حصة من منتوجه،توالد وتكاثر البقر والغنم مقابل الخروف أو العجل ،أو العشور بعد بيع مولود الفرس،هذا عدا عن تمكين الأزواج من الذكر كمولود أول وهو ما دفع بترينكا إلى القول بأن بركة الشيخ زروق وراء العدد الكبير للذكور مقارنة مع الإناث بالقبيلة.(أنظر:Trenga : Les Branes …p :401).

بركات الشيخ زروق كولي "ضامن البلاد" نجد مثيلا لها في العديد من مناطق المغرب كما أشار إلى ذلك الباحث بول باسكون. نفس الشيء لاحظه الباحث علي علام بخصوص المكانة المتميزة للأولياء والصلحاء ومقراتهم بالأضرحة حيث يوجدون على رأس الهرم الاجتماعي الديني فوق الأحياء بكل مستوياتهم وتراتبياتهم.فالولي المدفون بضريح مولاي إدريس يَخْضَعُ له جميع مريديه وأتباعه وزواره بصفته "مُولْ الْبْلادْ" وهي ما يقابل "ضامن البلاد" لدى الولي أحمد زروق. بعد تطرقه إلى ظاهرة التصوف المنتشرة في المغرب والعدد الكبير للزوايا وفاس يقول علي علام: " ومن بين العادات التي كانت منتشرة بهذه المدينة الإدريسية،أن الناس كانوا إذا قدموا لزيارة الضريح الإدريسي،يأتون إليه حفاة،ومنهم من كان يقبل عليه على ركبتيه ويديه إلى أن يصل إلى الضريح،مما يؤكد قوة الإيمان والاعتقاد في بركة هذا الولي،الذي كان البعض يسميه مول البلاد". (علي علام: التصوف في مغرب... ص:75).

بركات "السيد" الولي الصالح تتفوق كذلك على بركات رجال الدين والشرفاء وقوة وسلطة المخزن على السواء:إنه "ضامن البلاد" وحاميها من كل أذى أو عدوان أو استبداد. فالسيد أحمد الأنجري فقيه مسجد ضريح الشيخ زروق منذ 20 سنة،منع من مغادرة وظيفته نحو أنجرة قبيلته الأصلية وبقي "مربوطا إلى كرسيه" بسبب اعتراض الولي على قراره وهو الذي يعرف جيدا قيمته العلمية العالية.وعلى الشرفاء الراغبين في الاستقرار

بالقبيلة احترام سمو مكانة الولي الذي قد يضطر إلى الانتقام منهم في حال تجاوز الخطوط الحمراء كما حدث للشريف أحمد البقالي حينما تنطع وتجاهل الولي فكانت النتيجة هي إبادته هو ومرافقيه .نفس المصير كان ينظر السلطان الحسن الأول الذي حاول معاقبة قبيلة بني بوعلا البرنوسية التي ثارت على قائدها أحمد بن الطيب العمراني وأحرقت منزله واستولت على ممتلكاته.فبمجرد وصول السلطان الحسن الأول إلى أحد بني بوعلا وبينما هو نائم ظهر له الولي زروق قائلا:" لقد تركتك تمر بتراب القبيلة لأنك لم تقم بأي عدوان على الساكنة التي في حمايتي،وأعرف أنك تريد الآن محاربتها لكن سأسحقك إن قضيت الليلة هنا.على ضوء ذلك أصيب السلطان بالرعب وتذكر ما كُتِبَ في كتب أجداده بأن على السلطان الذي يقترب من ضريح سي أحمد، عليه أن يطوي مظلته كدلالة على الخضوع"التسليم" .لقد تراجع السلطان عن زيارة الضريح لكنه بعث إليه بثور كذبيحة/ندر ".(أنظر الرواية الشفوية لدى: (Trenga : Les Branes …P :399-400).

هده الرواية الأخيرة وإن غلب عليها الجانب الأسطوري لكنها تعكس معتقدات البرانس وإيمانهم القوي بكرامات وقدرات الولي الصالح "الركيزة دالبرانس/ضامن البلاد" والعباد والحيوان والفلاحة من أي مكروه. فمقاومة القبيلة لأي تواجد مادي للمخزن عبر هياكله السياسية الإدارية،قياد،خلفاء،شيوخ، وما ينتج عن ذلك من خضوع واستعباد توازيها وتدعمها –أي المقاومة- مقاومة الولي وحمايته للقبيلة.

لقد شكل الجانب المأسطر في شخصية زروق رافدا من روافد ثقافة المقاومة لدى البرانس وهذا ما انتبه إليه الكثير من زعماء الثورة والمقاومة بداية القران العشرين وحتى السياسيين ما بعد الاستقلال.فالجيلالي الزرهوني الذي بويع سلطانا بتازة سنة 1902 وقاد ثورة قبائلها تحت شعار العدل والجهاد من أجل الاستيلاء على السلطة بفاس لم يغفل مكانة الولي الصالح لدى القبائل ولا تأثيره الكبير عليها حيث قام بزيارة الضريح بمنطقة تليوان بقبيلة الطايفة البرنوسية لضمان دعم وانخراط الجميع في مشروع غزو السلطة.

إن الفراغ السياسي الديني الذي تركه المخزن المركزي بقبائل حوض وادي إيناون غرب تازة كما بشرقها،استغله بذكاء الجيلالي الزرهوني الذي وإن فشل في إشعال ثورته اعتمادا على مكانة ضريح مولاي بوشتى الخمار بمنطقة تاونات بسبب قربها من العاصمة فاس فإنه استطاع تفجير الثورة عبر الجمع بين صلابة الكتل القبلية وكذا قوة المعتقدات والتمثلات التي تنتجها الأضرحة والزوايا بإقليم تازة. هذا المعطى أي المكانة المهمة للأضرحة والزوايا ودورها البارز في الاندماج الثقافي والاجتماعي الحقيقي الذي تحققه مذاهبها وحساسياتهم وكذا الممارسات الولائية التي تنشرها في كل المجتمع،يفرض حسب الباحث الأنثربولوجي عبد الله حمودي " على كل حاكم واع به إحاطتهم بإجلال واضح المعالم،وقد يصل هذا حد الإفراط أحيانا".(عبد الله حمودي:الشيخ والمريد... ص:112-113).

بالإضافة إلى العامل الجغرافي/التضاريس الجبلية الوعرة والعامل البشري/شجاعة القبيلة نجد الرموز والدلالات كعامل فاعل ضمن الإستراتيجية السياسية العسكرية لزعماء المقاومة.فهذا العامل كان حاضرا بقوة ضمن تفكير وخطط الزعيمان الشنكيطي ومحمد الغازي قائدا المقاومة بتازة.فبعد فشل مقاومة القبائل للغزو الفرنسي تحت قيادة

الفقيه الحجامي وتراجع المقاتلين نحو قبائلهم الأصلية،ظهر مولاي محمد الغازي الصنهاجي الأصل كشخصية جديدة مرشحة لقيادة المقاومة المسلحة.لقد وظف محمد الغازي رفقة محمد الشنكيطي الإرث التاريخي السياسي الديني للبرية بمنطقة الكوزات قبيلة أوربة/وربة كما وظفا الإرث المؤسطر لضريح الشيخ زروق حيث انتقل المقاومون من الكوزات حيث مقر "البرية"إلى ضريح الشيخ زروق بتليوان يوم 14 غشت 1914، المكان الذي سوف تنطلق منه الحركة الجهادية الثانية لمواجهة الجيش الفرنسي القادم من الجزائر بمنطقة مسون ووادي أغبال شرق تازة .

لم يكن تواجد هذان الزعيمان بالمنطقة عبثا بل نتيجة تقييم موضوعي لأهمية الموقع الاستراتيجي بمختلف جوانبه وكذا قدرات وشجاعة القبائل. فالغازي والشنكيطي ورغم اختلاف أصلهما ومواقع الانطلاق اتفقا خلال شهر غشت 1914 على التنسيق بينهما وقيادة التكتل القبلي العريض والقيام بهجومات تركزت على وقف الزحف الفرنسي على محور مسون/تازة وبواديهما ثم لاحقا مقاومة التغلغل الفرنسي بالبرانس بمناطق سيدي احمد زروق وباب تيمالو،ووادي الأربعاء...التي خلفت قتلى وجرحى فرنسيين منهم الضباط والجنود.
في نفس الشهر أي يومي 21 و 22 غشت 1914 قام محمد الغازي وبعد استقراره بمنطقة باب تيمالو شمال شرق تازة بتدمير قنطرة على وادي تازة وأعمدة الهاتف قبل الدخول إلى موقع جيراردو Gerardot بتازة ومصادرة الأسلحة وإشعال النار في أزقة المدينة .شكلت هذه المعارك صدمة قوية للفرنسيين حيث قال عنها كوسان CAUSSIN:

"أصبحنا نحس بالغربة والوحدة...نحن هنا – أي في معسكر جيراردو- بدون قوة وغير قادرين على الحركة...بدأت الرسائل تصلنا من فرنسا تتحدث عن تراجع جدي...ألا يفهم الناس أننا نعاني نفسيا" . (أنظر محمد الوردي:قبيلة...ص:191).
وضع كهذا شجع محمد الغازي على القيام بهجوم جديد معتمدا على مقاتلي البرانس يوم 30 غشت 1914 كان من نتائجه مقتل فرنسيين :ضابط وجندي .
تركزت المقاومة مع بداية 1915 بقيادة محمد الشنكيطي في الطايفة المدعمة بأوربة/وربة وبني فقوص حيث تم الهجوم يوم 8 يناير 1915 على قافلة المؤن الفرنسية بسيدي أملال وادي لحضر.تمثل رد الفعل الفرنسي في تشكيل قوة عسكرية كبيرة من جيشه بوادي أمليل وتازة قصد التوجه نحو قصبة بني ورياغل بالطايفة حيث يوجد محمد الشنكيطي قبل احتلال منطقة سيدي احمد زروق .
بسيدي علي لفحل وقعت أولى المعارك يوم 21 يناير 1915 حيث واجهت قوات بني بوعلا،وربة،بني فقوص والطايفة -2200 مقاتل – تقدم الجيش الفرنسي مما دفع ببيلو Bulleux إلى القول:"كنت مضطرا لأتخلى عن خمسة جنود سينكاليين وكان على فرقة الإسعاف أن تحمل قتلى وجرحى الأمس" .(نفس المرجع ...ص:177).كما فقد الجيش الفرنسي بقصبة بني ورياغل يومي 21 و23 يناير 1915 ،29 قتيلا و 4 جريحا فضلا عن العديد من الأسلحة والمعدات والمؤن ...وهو ما جعل بيلو يتراجع نحو تازة بدعوى سوء الأحوال الجوية.

من موقعه الاستراتيجي بضريح احمد زروق،استطاع محمد الشنكيطي تعبئة مقاتلي غياتة وكزناية وضمهم إلى مقاتلي البرانس، فأوقف تقدم الجيش الفرنسي المكون من 5000 جندي بقيادة درانكوان Drangoin نحو منطقة باب المروج عبر إحباطه محاولة إخضاع أولاد سيدة والنخاخصة وخوضه معركة منطقة تليوان يومي 6 و 9 ماي 1915.

قوة المقاومة وحدة المعارك التي خاضتها المقاومة بمسالك سيدي أحمد زروق، دفعت بالعقيد لوي فوانو L.Voinot إلى الاعتراف بها قائلا:"رغم المقاومة الشديدة التي أبداها العدو فقد تمكنا من طرده إلى القمم المجاورة ،ولم تتمكن قواتنا من احتلال سيدي احمد زروق إلا بعد عدة ساعات ،وعادت فرق المتمردين الى الهجوم،وترتب عن ذلك مقتل سبعة،وجرح أربعة عشر منهم ضابط واحد".(سمير بوزويتة:مساهمة قبيلة البرانس...ص:102).

إنجازات المقاومة وصمودها في وجه جيش فرنسي عصري منظم،مدرب ومدجج بالأسلحة العصرية ومتوفر على أحدث الخطط الإستراتيجية الحربية، بالنسبة للبرانس لا يمكن فصلها أي الانجازات عن تمثلاتهم ومعتقداتهم وقيمهم المتمحورة حول بركات وكرامات الشيخ زروق الولي الصالح "ضامن البلاد وركيزة القبيلة".فما تتوفر عليه المنطقة من تضاريس وعرة وما تتميز به ساكنة المنطقة من شجاعة وجرأة هي عوامل أساسية في إستراتيجية الحرب والتي توقف عندها الكثير من الباحثين مثل عبد الرحمان المودن وقبله الرحالة الحسن الوزان لكن البرانس تضيف عاملا رمزيا آخر يحول المعتقد إلى قوة مادية فاعلة .

خلال معارك منطقة سيدي أحمد زروق بقبيلة الطايفة/البرانس يوم 21 يناير 1915،اضطر الجيش الفرنسي إلى الانسحاب والتراجع نحو تازة تحت ضغط المقاومة وسقوط الأمطار تاركا الكثير من القتلى والجرحى والعتاد الحربي والمؤن، لكن ساكنة البرانس لم تسجل هذا الانتصار في حسابها الخاص بل أحالته على الرأسمال الرمزي للولي أحمد زروق الذي كان وراء سقوط المطر منتقما بذلك من الفرنسيين الذين تجرؤوا على الهجوم على الساكنة التي يحميها بصفته "ضامن البلاد".(أنظر:الرواية الشفوية TRENGA :Les Branes...p :401).

في هذا السياق، تقول الرواية الشفوية المتداولة بأن القوات الفرنسية عمدت إلى قصف الضريح بالمدفعية، حتى لا يحتمي به المقاومون، إلا أن القذائف كانت تنطلق في الاتجاه المعاكس، إذ تخرج من مؤخرة المدفع، وتنفجر في جنود القوات الغازية.

رغم كون زروق واحد من بين "الرجال السبعة" المقدسين بالبرانس فإن مكانته أسمى من الستة الآخرين :سيدي عبد الله،سيدي محمد بلهدادية،سيدي بويعكوب،سيدي عبد الله الخندق،سيدي بوعمران،سيدي عامر الزموري.لكن هذا لا يمنع من زيارتهم جميعا على قدم المساواة والتبرك بهم خاصة وأن ذكرهم شائع بين الناس"شاي الله أسَبْعَتُو رِجال".

لقد كان لهم تأثير إيجابي في نفسية المقاومة البرنوسية التي تقتسم معهم منجزاتها العسكرية عبر الاعتراف ببراكاتهم وهو ما لخصه الباحث محمد الخدادي قائلا: "شاعت رواية أخرى عن مشاركة "رجال البلاد" في مقاومة الغزو العسكري الفرنسي، فبعد انتصاره على إسبانيا في معركة أنوال (1921)، انضمت قبيلة البرانس إلى ثورة

محمد بن عبد الكريم الخطابي، بزعامة القائد الخلادي وزعماء محليين آخرين، وتحصن المقاتلون في جبال بني يفتح والحبايلة وتايناست، وخاصة في جبل أمَسُــافْ، المقابل لمركز باب المروج.

في هذا الجبل جرت آخر المعارك وأشرسها، إذ دامت حوالي ثلاثة أشهر في منتصف سنة 1925، ألحق خلالها المقاومون خسائر معتبرة بالقوات الفرنسية، التي لم تتمكن من السيطرة على الجبل إلا بعد استقدام تعزيزات كبيرة من مدينة تازة، وخاصة المدافع الثقلية المجرورة بالبغال، والطائرات المقتبلة.

في الواقع، تفسر تلك المقاومة بتوفر المقاتلين على امتياز المعرفة الجيدة بموقع القتال، في جبل وعر التضاريس، والقتال بالتناوب، وفق النظام المحكم الذي كان وضعه الخطابي، وعلى الإيمان بعدالة القضية، أمام عدو أجنبي وغريب،بجنود من اللفيف الأجنبي (La légion étrangère) "لاليجو"، ومن الجزائر والمستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا (ساليگان، نسبة إلى السينغال).

يبدو أن المقاتلين فوجئوا بصمودهم في وجه العدو المتفوق في كل شيء، أمام بنادقهم المتواضعة، وفي غياب تفسير عقلاني لذلك، كان طبيعيا اللجوء إلى المرجعية الدينية، فشاع أن "رْجالْ الَبْلادْ" قاتلوا إلى جانبهم على غرار الرواية التي تقول إن الملائكة قاتلوا مع المسلمين في إحدى غزوات النبي محمد .وإلى حين وفاته سنة 1993، ظل أحد المشاركين في تلك المعركة (والد كاتب هذه السطور)، متمسكا بهذه القناعة.

عرف هؤلاء "المحاربون المتخفون" لاحقا باسم "رْجالْ أمَسُافْ"، ومازالت هذه التسمية متداولة إلى اليوم بين الأشخاص المسنين، واستعملها كثيرا شيخ الغيوان امحمد الرهيف، الذي تميز باستخدام مرجعية الحرب والمقاومة في قصائده المرتجلة، بحكم عامل السن، ونشأته في منطقة قريبة من جبل أمساف.(محمد الخدادي:أحمد زروق...ص:7-8).

خريطة المقدس بالعديد من المجموعات الإجتماعية المحلية لها قواسم مشتركة كثيرة لكنها تختلف حسب بعض الخصوصيات التاريخية الإجتماعية،السياسية،الدينية والطبيعية .فالمجال الطبيعي جد غني بتفاصيل المقدس حيث نجد لدى البرانس مثلا أن للأشجار والمغارات والعيون والصخور والمقابر قدسية خاصة ومهابة في نفس الوقت لأنها تتوفر على كرامات تقي الساكنة من ضرر ما وتمنح زائرها مزايا معينة حسب إختصاصها:شفاء من البرص،إسقاط المطر...أو يجب الاحتياط وعدم الاقتراب منها.

مكانة هذه الرموز المادية لا ترقى إلى مكانة البرية وضريح الشيخ أحمد زروق الذين يتربعان على عرش وهرم المقدس لأنهما وبالإضافة إلى تسمية ساكنة القبيلة 'البرانس الأحرار/البرنوسي الحر' يتجاوزان سقف القضايا الاجتماعية العادية واليومية إلى ما هو مرتبط بالهوية والذات الجماعية للقبيلة التي كان همها الأساسي هو الدفاع عن الاستقلال السياسي الذاتي.

المراجـــع:

- عبد الرحمان المودن: البوادي المغربية قبل الاستعمار. قبائل إيناون والمخزن بين القرن 16 و 19. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. 1995. الطبعة 1.

- الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا. الجزء 1. الطبعة 2. ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر. دار الغرب الإسلامي.

- كنون عبد الله: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، الجزء الأول، دار إبن حزم، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2010.

- الحاحي رشيد: النار والأثر بصدد الرمزي والمتخيل في الثقافة الأمازيغية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 2006 .

- عزوزي إدريس: الشيخ أحمد زروق،آراؤه الإصلاحية .تحقيق ودراسة كتابه "عدة المريد الصادق"،منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، 1998.

- عبد الله حمودي:الشيخ والمريد-النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة.ترجمة عبد المجيد جحفة.دار توبقال للنشر.الطبعة الرابعة.الدار البيضاء.المغرب.2010.

- العلاوي فارس أحمد: رسالة في أصول طريق الصوفية، دار دمشق الطبعة الأولى، سوريا، 1995.

- عبد الغني منديب:الأضرحة بالمجتمع القروي- آليات الوجود والاستمرار .(ضمن مؤلف جماعي :التحولات الاجتماعية والثقافية في البوادي المغربية).منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية . الطبعة الأولى مطبعة النجاح الجديدة.الدار البيضاء.المغرب.2002.

- الوردي محمد: قبيلة البرانس في مواجهة الاحتلال العسكري الفرنسي: دور الزعامات في قيادة المقاومة (1912-1926)، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش الحرير، الطبعة الأولى، دار أبي رقراق للطباعة والنشر.الرباط، المغرب، 2017.

- سمير بوزويتة : مساهمة قبيلة البرانس في مقاومة الاستعمار الفرنسي للمغرب. 1912-1925. ضمن: المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة، الحسيمة، تاونات. 1900- 1956. منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله. كلية الآداب. فاس.

- فاطمة المرنيسي: المرأة ونظام الرموز-المرأة وزيارة الأضرحة، ترجمة: فاطمة الزهراء صلاح، مجلة أبحاث، العدد 5/4، يونيو 1984.

- بول باسكون:الأساطير والمعتقدات بالمغرب، ترجمة مصطفى المسناوي، مجلة بيت الحكمة، العدد الثالث، مطبعة دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1986.

- الخدادي محمد: أحمد زروق...الركيزة دالبرانس، موقع: www.branestaza.ma.

- علي علام: التصوف في مغرب ما قبل الحماية. مجلة نوافذ،المغرب. العدد 31، أكتوبر 2006.

-**TRENGA** : Les branes. Archives Berbères 1915-1916. Rabat.

- **M.MICHAUX** : L'organisme Marocain. Revue du Monde Musulman, N 9, 1909

-VOINOT(L): "**Taza et Les Riata"**, extrait du bulletin de la société de géographie et d'archéologie, imprimerie typographique et lithographiques, L. Fouque, Oran, 1920